الوضع الصحي للجزائر ابان الاحتلال الفرنسي 1939-1950 :

الأستاذ داعي محمد. جامعة سعيدة

كان عدد سكان الجزائر قبل سنة 1830 قدر بثلاثة ملايين ، و في سنة 1945 لم يبق منهم سوى مليونان ، بحيث لم تضعف طاقة المقاومة نتيجة المعارك الضارية فقط بل ساهمت في ذلك الافات الطبيعية ، و قد تظافر الانخفاض العام لمستوى المعيشة و غياب الاحتياطات ليجعل من أدنى العوامل الطبيعية كوارث حقيقية ، فكانت المجاعة المتلاحقة 1867 – 1868 – 1878 – 1893 و تبعتها أوبئة الكوليرا و التيفوس . (1)

كما هاجمت عليهم أمواج الجراد و داهمهم القحط و الجفاف ، فقدوا كل شيء و تحول أغلبهم الى خماسين و مزارعين و عمال موسميين بأجور زهيدة جدا لا تفي بأبسط الضرورات اليومية لأطفالهم و عائلاتهم . (2)

انها سياسة اعتمدتها فرنسا الاستعمارية حتى يتسنى لها اكتمال تفكيك المجتمع الجزائري ، لقد انهار هذا المجتمع تحت ضربات متتالية تمثلت في استحواذ المستعمرين على الأراضي و في تشتت القبائل ، فانحل المجتمع الجزائري نتيجة الحركة التي دفعت بالسكان الى مغادرة أريافهم نحو أراضي المستوطنين ثم نحو المدن فالى فرنسا و البلدان المجاورة ، فكانت الجماهير الريفية تقبع في حالة من البؤس الرهيب ، لا تفكر الا في البقاء على قيد الحياة و مجابهة المشاكل اليومية .(3)

و هو ما وقف عليه "هنري علاق" من خلال كتابه مذكرات جزائرية واصفا الجزائريين القادمين من الأرياف الطالبين التوظيف قائلا : "كنت أجلس وراء الطاولة يلفها الغبار و سيئة الاضاءة في برصة العمل ، كنت اسجل كل يوم مترشحين جدد بالعشرات ، منهم الفلاحين النحيفين و ذوي الزي الرث الذين يقفون في الطوابير أمام مكتب النقابة . لقد كانوا يصلون تباعا من الأرياف حيث المجاعة و التيفوس يصنعان دمارا و بدون رد من السلطات التي لا تستجيب" . (4)

اضافة الى ذلك أن فرنسا الاستعمارية لم تخصص الا مبلغا ضئيلا من ميزانيتها للصحة العامة لم تتجاوز أربعمائة و ثلاثون الف من الفرنكات و هو ما انعكس سلبا على الأوضاع العامة اذ انتشرت الأمراض بين فئات الشعب و أصبح الأطفال يموتون في مقتبل العمر . (5)

و هو ما تترجمه أرقام العاملين في القطاع الصحي التي جاء بها يحي بوعزيز في كتابه سياسة التسلط الاستعماري أنه ما كان متوفر الا 1851 طبيب و 660 قابلة و 661 صيدلي و 462 طبيب أسنان و من بين 1851 طبيب يتمركز 1145 منهم في المدن الكبرى (قسنطينة ، وهران ، الجزائر) و ما تبقى من المدن الأخرى ما كان متوفر لديها الا 50 طبيب لكل واحدة منهم و ما بقي موزع بنسبة 4 الى 6 لكل مائة ألف شخص .(6)

و في دراسة اعدتها أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي لمعهد الاستشراق من خلال كتاب تاريخ الأقطار العربية المعاصرة 1917 – 1970 ، تشير الى أن انخفاض مستوى معيشة الجزائريين هو ما وجد له تعبيرا أشد ما يكون وضوحا في انخفاض انتاج و استهلاك المواد الغذائية بالنسبة لفرد واحد بحيث ان حصة كل جزائري تشكل في المتوسط اقل من ثلثي الحد الادنى للمعيشة و ذلك حسب معطيات عيئة الامم المتحدة ، ا كان 50% من أطفال الجزائريين يموتون قبل ان يبلغ عمرهم خمسة أعوام و لم يكن أكثر من 6% من سكان الريف الجزائريين يستفيدون من المساعدة الطبية . (7)

بل اكثر من ذلك فان العائلات الفلاحية الجائعة كثيرا ما لجئت الى مستودعات البلديات التي تعد محشرا للعربات و الكلاب الضالة و حتى الاحمرة ، اخذين جانبا منه أطفالا و نساءا متراصين الواحد الى جانب الاخر فقط للحفاظ على القليل من الدفء المشترك ، يضيف "هنري علاق" واصفا حالة الجزائريين ، "و في زاوية من الرواق و على حصيرة من الحلفاء كانت تجلس امراة عجوز ينخر وجهها بقع مرض الجذري تئن من الالم بدون ان يستطيع أحد أن يقدم لها النجدة" . (8)

هي وضعية كارثية كان عليها القطاع الصحي ، تزيد وضوحا من خلال الاحصائيات السنوية للجزائر 1948 – 1949 التي تشرف عليها الحكومة العامة للجزائر عن المديرية العامة للمالية من خلال جدولين ندرجهما يوضحان ذلك .

الأول : جدول يوضح العاملين في القطاع الصحي ضمن الاقليم الشمالي أطباء ، أطباء أسنان ، قابلات ، صيادلة ، الى غاية 1 جانفي من كل سنة .(9)

السنوات تصنيف العاملين	1939	1942	1943	1944	1945	1946	1947	1948	1949	1950
أطباء	1033	1139	1074	1315	1336	1356	1409	1449	1462	1578
أطباء أسنان	221	256	276	268	270	271	271	287	302	340
قابلات	401	434	396	438	427	386	410	408	467	478
صيادلة	385	409	413	413	417	422	438	441	483	520

ان استقراء أرقام الجدول تبين أن العاملين في القطاع الصحي توضح بشكل جلي الاهمال المتعمد من قبل السلطات الاستعمارية لهذا الجانب باعتبار أنه اذا ما قسنا التطور في عدد الأطباء من سنة 1939 الى 1950 الذي لم يزد الا بـ 454 طبيب و 39 أطباء اسنان ، انها أعداد قليلة اذا ما قورنت بالعدد السكاني للجزائر يومها و الذي تعدى عشرة ملايين ، انه عدد خاص و مقتصر الا للأقلية الاوروبية و ما يبرهن أن السلطة الاستعمارية ما كانت تولي الجزائريين أي عناية تذكر عندما نلاحظ التطور في عدد القابلات من سنة 1939 الى 1950 و الذي لم يتعدى 77 قابلة ، رقم جد قليل يترجم تعمد الاستعمار الفرنسي للدفع بالنساء الجزائريات للوضع بالطرق التقليدية التي تضعهن أمام أخطار شتى .

و الجدول الثاني يبين و يوضح توزيع (الأطباء ، الصيادلة ، أطباء الأسنان ، القابلات ، أطباء العيون) على عمالات الجزائر الثلاث و ولاياتها العاملين بالقطاع الصحي حتى نهاية 1950 . (10)

العمالة و الدوائر التابعة لها	الأطباء		القابلات	أطباء أسنان	البياطرة	الصيادلة	أطباء العيون
	العدد	العدد بالنسبة لكل 100 ألف ساكن					
الجزائر	624	77.8	172	130	12	186	29
سور الغزلان	15	4.5	2	2	2	7	-
البليدة	69	24.4	16	17	2	30	2
المدية	13	5.9	1	3	2	7	-
مليانة	26	10.4	2	2	4	8	-
الشلف	17	5.8	2	2	3	7	-
تيزي وزو	31	5.3	2	4	3	13	-
المجموع	795	28.4	197	160	28	258	31
وهران	229	41.2	101	62	23	84	
معسكر	34	13.9	7	8	4	11	3

مستغانم	49	12.2	22	12	4	18	2
سيدي بلعباس	34	18.2	11	8	6	17	5
تيارت	19	8.5	5	3	4	6	1
تلمسان	42	12.0	16	8	4	13	1
المجموع	407	20.6	162	101	45	149	26
قسنطينة	106	12.0	32	26	11	32	6
باتنة	22	5.2	8	6	3	9	-
عنابة	64	24.1	32	19	4	20	3
بجاية	31	5.8	10	8	3	12	1
قالمة	18	9.2	8	5	3	5	-
سكيكدة	36	13.6	9	7	2	14	2
سطيف	43	8.9	10	6	4	14	1
المجموع	320	10.3	109	77	30	106	13
مجموع العاملين في شمال الجزائر	1.522	19.4	468	338	103	513	70
مجموع العاملين بالصحراء	35	4.2	10	2	-	7	-

أرقام تبين و بشكل واضح تمركز الاطباء حيث يوجد المستوطنون بشكل كبير ، عمالة الجزائر و ولاية البليدة ، عمالة وهران و ما تبعها مثل مستغانم ، تلمسان ، سيدي بلعباس ، قسنطينة و منها عنابة ، سطيف فبجاية .

التركيز على الجهة الشمالية مقارنة مع الصحراء التي يتواجد بها الاخمسة و ثلاثون طبيبا و عشر قابلات واثنان من أطباء أسنان و سبع صيادلة و هو ما يبرهن الاهمال الواضح و المتعمد لشؤون القطاع الصحي الذي قد يقدم خدمات للجزائريين أي أنه ما هو موجود خاص الا بفئة المستوطنين دون غيرهم .

هي سياسة متعمدة يقف عليها المؤرخ محمد حربي بالمقارنة مع تونس التي لم تحتل الا سنة 1881 و التي كان عدد سكانها أقل بثلاث مرات من سكان الجزائر ، تبين مدى التفقير الثقافي الممارس على الجزائريين بحيث أنه ما كان منهم سنة 1951 الا 75 طبيب مقابل 153 لتونس و 36 صيدليا مقابل 49 . (11)

بل أكثر من ذلك انها خلقت كل الظروف السيئة لذلك كثرت الامراض و الأوبئـة و انتشرت الوفايات بشكل خطير جدا نتيجة البؤس و الفاقة و انخفاض مستوى المعيشة و ضيق الأكواخ و تكدس السكان . (12)

أوضاع جد مأساوية عاشها الجزائريون وقف عليها "هنري علاق" واصفا جزءا منها : "من الفرحين البؤساء بنساءهم و أطفالهم يسعلون و يبكون و ينتحبون في الأوحال تحت المطر ، و في مكان اخر منعت السلطات المحلية و على رأسها رئيس البلدية الدخول الى مدنهم على هؤلاء الشحاذين الذين انتشروا و هم ينشرون التيفيس و أمراضا أخرى ، يسهر رجال الجندرمة على صدهم خارج حدود المدن" . (13)

قائمة المصادر و المراجع :

1- محمد حربي ، الثورة الجزائرية سنوات المخاض ، ترجمة نجيب عياد ، صالح المشلوشي ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر 1994 ، ص 78 .

2- يحي بوعزيز ، سياسة الاستعماري و الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1985 ، ص 40 .

3- محمد حربي ، مصدر سابق ، ص 79 .

4- هنري علاق ، مذكرات جزائرية ، ترجمة جناح مسعود ، عبد السلام عزيز ، دار القصبة ، الجزائر 2007 ، ص 118 .

5- ناهد ابراهيم دسوقي ، دراسات في تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر بين الحربين 1918-1938 ، منشأة المصارف ، الاسكندرية 2001 ، ص 81 .

6- يحي بوعزيز ، مرجع سابق ، ص 126 .

7- أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي ، تاريخ الأقطار العربية المعاصرة 1917-1970 ، معهد الاستشراق ، الجزء الثاني ، دار التقدم ، موسكو 1986 ، ص 343 .

8- هنري علاق ، مصدر سابق ، ص 126 .

9- Gouvernement générale de l’algerie , direction générale des finances service de statistique générale , annuaire statistique de l’algerie nouvelle série , deuxième volume 1948-1949 , p 65

10- Gouvernement générale de l’algerie , opcit , p 65 .

11- محمد حربي ، مصدر سابق ، ص.ص 92،93 .

12- يحي بوعزيز ، مرجع سابق ، ص ، 63 .

13- هنري علاق ، مصدر سابق ، ص.ص 127 ، 128 .